أثر الإسلام في شعر كعب بن زهير من خلال قصيدة البردة

محمد عبد العزيز التيجاني[١]

ملخص البحث

إنَّ الأدب هو المصدر لحياة الأمم، فهو تصوير دقيقٌ وصادق ومُعَبِّر عن آثار معطيات الحياة في النفوس؛ لذلك فإن دراسته وتذوقه أمر من الأهمية بمكان؛ فمَنْ أراد أنْ يَتعرَّف على ماضي هذه الأمة وحاضرها فعليه بالأدب؛ لأنَّ فيه كلَّ ما يمكن أنْ يصوَّر من مآثر، وقيم، وأخلاق وقضايا اجتماعية مُهِمّة. يعتبر العرب إحدى الأمم الشاعرة التي طبَّقت شهرتها الآفاق، وتركت من التراث الأدبي الشعري والبلاغي ما تزْهو به على الأمم، وتفخر به على الأجيال؛ فجاء الشعر العربي حافلاً بالعديد مِن الأغراض الشعرية، والشعراء المَمَيَّزين، الذين جاء شعرهم أريجًا يفوح على مدى العصور الأدبية، بدءًا بالعصر الجاهلي، وانتهاءً بالعصر الحديث، وازدهارًا عِلْميًّا، ورُقيًّا حَضاريًّا مَلموسًا. لقد وقع اختياري لهذا المَوْضوع؛ نِسبة لأهمِّيته من الناحية الأدبية، خاصة وأنَّ الشعر تطور وازدهر في عصر صدر الإسلام، وتأثر بَعْض الشعراء الجاهليين بالإسلام، فجمعوا بين الجزالة والرصانة، وبين الرقة والعذوبة في أشعارهم، وأضافوا إليها مواضيع جديدة من وحي القرآن. ومِن الدوافع أيضًا أنَّ بلاد بني غطفان — التربوية التي كان منها الشاعر موضوع البحث – بلاد ذات طبيعة خلابة، ولا شك أنَّ هذه البيئة شكلت، من الصور التي رسمها الشاعر صورًا رائعة في الأدب العربي عامة، وفي بلاد بني غطفان خاصة، بالإضافة إلى قوة شاعرية الشاعر، وكثرة استخدامه للألوان البلاغية في شعره؛ مما لفت نظري وحدا بي إلى القيام بهذه الدراسة المحاوِلة للوفاء بالجانب الفني في شعر كعب، خاصة مما عبَّر عن النواحي الجمالية والبلاغية، المتأثرة بالإسلام فيه، وقد شجَّعني في هذه الناحية ما وجدته في شعر كعب عمومًا – وفي بردته خصوصًا – من غزل عفيف، وتشبيهات رائعة، واستعارات جميلة، وكنايات بديعة، ووصف جميل، ومدح صادق .. ويمكنني أن أجمل الأهداف التي رمت إليها هذه الدراسة فيما يلي: ١– إعطاء صورة متكاملة عن الشاعر، والتعرُّف إليه وإلى ديوانه، ٢– إبْراز المكانة التي يحْتلها الشاعر في ميدان الشعر العربي، ٣– الوقوف على عصره والبيئة التي عاش فيها، ٤– الوقوف على الناحية الفكرية في شعره، ٥– الوقوف على الصور الفنية من حيث وسائل التصوير الفني من تشبيهات، واستعارات، وكنايات في شعره.

[١] كلية اللغات والاتصال جامعة السلطان إدريس التربوية، بيراق دار الرضوان، ماليزيا.

أما المنهج العلمي الذي اتبعته في هذه الورقة فقد كان مزيجًا من وصف الشاعر، ووصف شعره، ومعرفة الظروف والملابسات التي اكتنفته، وما تم في عطائه من تأثير وتأثر، ثم تتبَّعت التاريخ لمعرفة العصر الذي عاش فيه الشاعر؛ وذلك في سبيل التحليل الفني القائم على أسس تأريخية تربط الأحداث بما في شعره من قوة وجمال تعبيريْن؛ فكان المنهج وصفيًّا تحليليًّا تأريخيًّا.

Abstract

The Arabs are considered one of the poet nations whose fame applied the horizons, and left the literary and rhetorical literary heritage that it boasts on the nations, and prided itself on generations. Kaab bin Zuhair was one of those flags whose bid was distinguished by the concepts of (khadrama) that appear in its combination between the originality of the old in the form of the poem and its construction and the giving of the new from the lights of faith guidance, so the burdah of the poet's words was exposed to these congeners and miscellaneous The intention of the high-end .. This research has stood on the ideas contained in the burdah that mixed a believing heart and its poet has devoted himself to systems that preserved the shape of the old in his language and rhythm, and the rhetorical images that did not depart in her imagination from the beauty fraught with the care of the polite soul by refining Islam, so the research aimed To highlight these aesthetics in rhetorical ideas and images according to an analytical and descriptive approach that does not exceed the historical spirit in any way in order to reach results after the researchers are requested to examine them and give them care and attention that fits with literary studies and opens horizons for scholars and researchers .

Keywords: Poetry, Gahilyah, Maven, Burdah, Praise, Ideas, Form and Content, Rhythm

أولاً : سيرة كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن ربيعة بن رياح بن قرط بن الحارس بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هزمة بن لام بن عثمان بن مزينة (ابن سلام الجمحي، ١٩٨٠م)، ومزينة إحدى قبائل مضر. وأم كعب هي كَبْشة بنت عمار بن عَدي بن سَحيم، أحد بني عبدالله بن غطفان (زهير، ١٩٩٥). وهي أُمُّ سائر أولاد زهير، تزوجها بُعيد أُمّ أوْفَى؛ رغبة منه في الولد؛ مما أثار حفيظة أمّ أوفى، فأصابتها الغيرة فآذته؛ فطلقها نادمًا. يذكر ابن قتيبة أنّ كعبًا : (... ينتسب إلى غطفان، رغم أنّ الناس يَنسبونه إلى مُزينة، وليس لهم دليل على ذلك إلا بيت كعب بن زهير الذي قال فيه :

هُمُ الأَصْلُ مِنّي حيثُ كنتُ وإنّني من المزَنيّين المصَفَّيْنَ بالكرَمْ (ابن قتيبة، ١٩٧٧م)

وإذا كان ابن قتيبة قد جعله في غطفان؛ فإن ابن الأعرابي، وابن الكلبي، وأبا الفرج الأصفهاني، يرُدُّونه إلى مزينة.

لما تزوج والده كبشة، أقام في قومها بني غطفان حتى كاد ينسب إليهم، بل نسبه إليهم بعض المؤرخين .. ولد كعب ونشأ وتربى في غطفان كأنه واحد منهم حربًا وسلمًا. وقد رثى ربيعة بن مكدم الكناني، لصلته بقوم أُمّه، على أنّه لم ينس أصله وقومه الأدنين وعندما سنحت له الفرصة افتخر بالمزنيّين وبكرم أصلهم، فقال كلمته السابقة .

ثانيًا : شعره قبل إسلامه

اتفق الرواة على أنّ الشعر لم يتصل في ولد أحد مِن فحول الشعراء في الجاهلية اتصاله في ولد زهير. (فكعب وأبوه زهير وجدّه أبو سُلمى، وعمّتاه سُلمى والخنساء، وخال أبيه بشامة بن الغدير، وابنا عمته تماضر وأخوها صخر، وابنا بنته سُلمى قريض والعوتبان، وأخوه بُجير، وولده عُقبة، وحفيده العوام بن عُقبة، فإلى ابن حفيده بشير كلهم شعراء). سلسلة شعرية متصلة وإنْ اختلفت حلقاتها قيمة، غير أنّها تشترك كلها بهذا الفيض مِن الإلهام الشعري . (القالي، ١٩٨٩م)

في هذه البيئة الشعرية نشأ كعب. فسمع الشعر طفلاً، ورواه ناشئًا وقاله يافعًا. وكان كعب كبير أبناء زهير، فعني به أبوه عناية خاصة، يهذب ذوقه، ويروّيه شعره. فعاش حياته الجاهلية بعمقٍ انعكس على أشعاره في تلك الفترة، جعلته يحسب من مقدّمي شعرائها (ابن عبد ربه، ١٩٨٦م) ..

شعر كعب كثيرٌ وجيّدٌ، يتصف بقوة التَّماسك، وجزالة الألفاظ، وسمو المعنى. ولكعب قدم راسخة في ميدان الشعر، وصيت ذائع. والدليل على ذلك : (أنّ الحُطيئة قال لكعب : قد علمتَ روايتي شعر أهل هذا البيت وانقطاعي لكم، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلتَ شعرًا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً ! فإن الناس لأشعاركم أروى، وإليها أسرع) (ابن سلام الجمحي، ١٩٨٠م). فقال كعب (كعب، ٢٠٠٨م) :

فمن للقوافي شانَها من يحوكُها إذا ما ثوى كعبُ وفوّزَ جَرْوَلُ
كَفَيتُكَ لا تلقى من الناس واحداً تَنحّلَ منها مِثلَ ما يَتنحّلُ
يُثَقفُها حتّى تلينَ مُتونُها فَيقْصُرُ عنها كلُّ ما يُتمثّلُ

تحرَّك كعب بن زهير وهو يتكلم بالشعر، فكان والده ينهاه، مخافة أن يكون لم يَسْتحكم شعره، فيرْوي له ما لا خير فيه، فكان يضربه في ذلك، ففعل ذلك به مراراً يَضربه وينهاه، فكلما ضربه تزيّد فيه فغلبه، فطال ذلك عليه، فأخذه وحبسه ثم قال له : (والذي أحلف به لا تتكلمّ ببيت شعر، ولا يبلغني أنك تطلب الشعر إلا ضربتك ضربًا يصرفك عن ذلك) (الزركلي، ١٩٨٠م). فمكث محبوسًا عدة أيام، ثمّ أُخبر أنّه يتكلَّم به، فدعاه فضربه ضربًا شديدًا، ثم أطلقه وسرَّحه في بَهْمه، وهو غُليّم صغير. فانطلق فرعاها، ثم راح بها عَشية وهو يَرْتجز :

كأنّما أحْدُو ببهمي عِيرا من القرى مُوقرةً شعيرا)

فخرج عليه زهير وهو غضبان، فدعا بناقته وكفلها، ثم قعد عليها حتّى وصل إلى ابنه كعب، فأخذ بيده وأردفه خلفه، ثم خرج يضرب ناقته، وهو يريد أنْ يعلم ما عند ابنه من الشعر، فقال زهير حين برز إلى الحي (زهير بن سلمى، ١٩٩٥م) :

إنّي لتُعْديني على الهمّ جَسْرَةٌ تخُبُّ بوَصَّالٍ صَرومٍ وتُعْنِقُ

ثم ضرب كعباً وقال له : أجزْ يا لُكَعُ، فقال كعب :

كبُنْيَانةِ القَرَئيّ مَوْضِعُ رَحْلِها وآثار نِسْعَيْها من الدَّفِّ أبْلَقُ

فقال زهير :

على لاحبٍ مثلِ المجَرَّةِ خِلْته إذا ماعلا نشْزاً من الأرض مُهْرَقُ

أجز يا لُكعُ، فقال كعب :

مُنيرٌ هَدَاهُ ليلُهُ كنَهارِهِ جَميعٌ إذا يَعْلو الحُزُونة أفْرَقُ

ثم بدأ زهير في نعت النعام، وترك نعت الإبل، يَتعَسَّفه عمداً ليعلم ما عنده فقال :

وظَلّ بِوَعْساءِ الكثيبِ كأنه خِباءٌ على صَقْبَيْ بِوَانٍ مُرَوَّقُ

فقال كعب :

تَراخَى به حُبُّ الضَّحَاءِ وقد رأى سَمَاوَةَ قَشْرَاءِ الوظيفَيْن عَوْهَقِ

فقال زهير :

تحِنّ إلى مثل الحبابير جُثّمٍ لدى منْتِجٍ من قيضها المتفلّق

فقال كعب :

تحطّم عنها قيْضُها عن خراطمٍ وعن حدقٍ كالنّبْخ لم يتفتّقِ
أبيْتُ فلا أهْجُو الصّديق ومن يَبِعْ بعِرْضِ أَبيه في المعاشر يُنْفقِ

فأخذ زهير بيد ابنه كعب ثمّ قال له : (قد أذنت لك في الشعر يا بنيَّ ...) (زهير بن سلمى، ١٩٩٥م) , وكل هذا يدُلُّ على أنّ الشاعر الجاهلي لا ينسب ابنه إليه إلا إذا تأكّد أنّ ابنه فارس شجاع، وشاعر جيّد . (ابن رشيق، ١٩٧٢م)

عاش كعب بن زهير جزءًا من حياته في الجاهلية، وجزءًا منها في الإسلام، فكان صاحب نتاج شعري في الفترتين، وقد عدّه ابن سلاّم في الطبقة الثانية، وجعله ثالثًا في الطبقة، تاليًا للشاعرين الكبيرين : أوس بن حجر بن عتّاب، وبشر بن أبي حازم .

ومِن أقوال القدماء في فنّه : (قيل لخلف الأحمر : زهير أشعر أم ابنه كعب ؟. قال : لولا أبياتٌ لزهير أكبرها الناسُ. لقلتُ : إنّ كعباً أشعر مِنه) (ابن قتيبة، ١٩٩٧م) .

إنَّ الحطيئة – وبالرغم مما كان يمتاز به من قوة الشعر، وشرود القافية، وأنّه كان راوية لزهير وآل زهير – أتى كعبًا ورجاه أنْ يذكره في شعره قائلاً : (قد علمتَ روايتي شعر هذا البيت وانقطاعي إليكم وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك، فلو قلتَ شعرًا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعًا، فإنّ الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع) (ابن قتيبة، ١٩٩٧م) ،فقال كعب (كعب، ٢٠٠٨م) :

فَمَنْ للقوافي شانَها من يَحُكُّوها إذا ما ثوى كعب وفَوَّز جَرْوَلُ
يقول فلا يَعْيَا بشيءٍ يقوله ومِنْ قائليها مَنْ يُسيئ ويعمَلُ
يُثقِّفُها حتى تلين متونُها فيَقصُرُ عنها كل ما يَتمثلُ
كَفَيْتكَ لا تلْقى من الناس شاعراً تنَخَّلَ منها مثل ما أتنَخَّلُ

ومن أشعار كعب بن زهير قبل الإسلام، قصيدته التي قال فيها (كعب، ٢٠٠٨م) :

وهاجرةٍ لا تَسْتريدُ ظِباؤُها لأعلامها من السَّراب عَمَائِمُ
تَرَى الكاسِعاتِ العُفرَ فيها كأنّما شَوَاها فأصَلاّها من النار جاحِمُ
نَصَبْتُ لها وجْهي على ظهرلاحبٍ طَحين الحصى قد سَهّلته المناسِمُ
تراه إذا يعْلو الأحِزَّةَ واضحًا لمن كان يَسْري وهو بالليل طاسِمُ
زجرْتُ عليه حُرَّةَ اللّيطِ رَفَّعتْ على رَبِذٍ كأنّهنَّ دعائِمُ
تخالُ بضاحي جِلدِهَا ودُفوفِها عَصيمَ هِناءٍ أَعْقدتْه الحَنَاتِمُ

ثالثًا : شعره بعد إسلامه

لا شكَّ أنَّ كعبًا وقومه سمعوا بالنبي صلى اللهُ عليه وسلم، حتى إذا ضخم أمره وأخذت دعوته بالانتشار، رغب كعب في أنْ يعرف شيئًا واضحًا عن ذلك وكان والده زهير نظَّارًا متوقيًا، وقد رأى في منامه آتيًا أتاه فحمله إلى السماء حتى كاد يَمسّها بيده ثم تركه فهوى إلى الأرض فلما احْتُضِر قصَّ رؤياه على ولده قائلاً : (إنّي لا أشكّ أنّه كائن من خبر السماء بعدي شيء، فإنْ كان فتمسَّكوا به وسارعوا إليه) (كعب، ٢٠٠٨م). فلما بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم، خرج إليه بُجير بن زهير فأسلم ثم رجع إلى بلاد قومه، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه بُجير بالمدينة، وكان من خيار المسلمين، وشهد يوم الفتح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويوم خيبر، ويوم حنين.

أمّا كعب فلمّا بلغه إسلام أخيه بُجير، غضب عليه وعلى الدين الجديد؛ فأرسل إلى أخيه قصيدة يُعيره بإسلامه، ويلومه فيها على ترك دين الآباء والأجداد قائلاً (الأصبهاني، ١٩٨٣م) :

ألا أبْلِغا عنّي بُجَيْرًا رسالة فهل لك فيما قلتُ بالخَيْفِ هل لكا
شربتَ مع المأمون كأسًا رويَّة فأنْهَلَكَ المأمون منها وعلَّكا

وخالفتَ أسبابَ الهُدى وتبِعْتَه على أيّ شيءٍ وَيْبَ غيرِك دلّكا
على خُلْقٍ لم تُلْفِ أمّاً ولا أبًا عليه ولم تدْرِكْ عليه أخًا لكا

فلما بلغتْ هذه الأبيات بُجَيْرًا أنشدها النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : (صدق! أنا المأمون وإنّه لكاذب. قال : أجل لم يُلفِ عليه أباه ولا أمَّه على الإسلام) (كعب، ٢٠٠٨م). فأهْدَرَ النبي صلى الله عليه وسلم دمه قائلاً : (من لقيَ منكم كعب زهير بن أبي سلمى فليقتله) (الأصبهاني، ١٩٨٣م). فكتب بُجَير إلى أخيه كعب، وقال له : (انْجُهْ وما أراك بمُفْلِتْ) (المصدر نفسه). ثم كتب إليه بعد ذلك يأمره أن يُسلم ويُقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قبل صلى الله عليه وسلم منه، وأسقط ما كان قبل ذلك .. فعندما تمَّ للرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة، ودانت الجزيرة العربية كلها له، بعث بُجَير برسالة إلى أخيه كعب يخبره بأن رسول الله صلى الله عيله وسلم يقبل توبة مَن تابَ ممّن كانوا يحاربون الإسلام قبل الفتح، فإن كانت لك في نفسك حاجة فأقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لا يقتل أحدًا جاء تائبًا .. فلما أتاه كتاب بُجير؛ ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به ما كان في حاضره، ويبدو أنَّ رسالة بُجير قد أحدثت أثرًا كبيرًا في نفس كعب، فشرح الله صدره للإسلام، وصدَّقت الأيّام إسلامه، وقد قرر أنْ يتصدى لمعالجة الموقف بنفسه، فذهب إلى المدينه، ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبدأ بأبي بكر، فلما سلّم النبي صلى الله عليه وسلم مِن صلاة الصبح جاء به وهو مُتلثم بعمامته، فجلس بين يديه ثم قال : (يا رسول الله إن كعب بن زهير أتاك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابلٌ إنْ جئتك به ؟ فقال رسول الله : نعم. فقال كعب : أنا كعبٌ. فوثب رجل من الأنصار ثم قال : دعني أضرب عنقه، فكفَّه النبي عليه الصلاة والسلام عنه)، فمدح كعب النبي صلى الله عليه وسلم بلاميته التي منها :

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبي اليَوْمَ مَتْبولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبولُ
وَمَا سُعَادُ غَداةَ البَيْن إِذْ رَحَلوا إِلاّ أَغَنُّ غضيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
هَيْفاءُ مُقبِلَةٌ عَجْزاءُ مُدْبِرَةٌ لا يُشْتكى قِصَرٌ مِنها ولا طُولُ
تَجْلُوعَوارِضَ ذي ظلمٍ إذا ابْتَسَمَتْ كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلولُ

رابعًا: أثر الإسلام في شعره

١ – الناحية الفكرية

نجد أنَّ الغرضَ مِنْ قصيدة (بانت سعاد) هو الاعتذار للرسول عليه الصلاة والسلام، واستعطافه، ومدحه. وهذه مِنْ الأغراض المتداولة في الجاهلية والإسلام؛ لأن حياة الشاعر لا تخلو مِنْ أخطاء يَعْتذر عَنها ـ وهو يجْعَل المدح وسيلة لإرضاء مَنْ يعْتذِرْ إليه حتى يَكْسَبْ عَفوه ورضاه ـ لذلك يأمل كعب العفو مِنْ إنسان عَظيم، هو الرسول الكريم، الذي لا يَقتل مَنْ أتى مسلماً؛ لأنَّ مَباديء الإسلام تدْعو إلى الرحمة؛ فتحقق أمله في العفو.

بدأ كعب قصيدته بالغزل على عادة الشعراء في العصر الجاهلي، تمْهيدًا للمَدح، فقد كانوا يبْدءون بالغزل؛ لارتباطه بحياة البادية، وأهمّية المرأة عند العرب، ولأنه كالموسيقى التي تمَهِّدْ للإنشاد، في المدح، والوصف والرثاء، لذلك اعْتبرت هذه القصيدة مِن روائع الشعر العربي؛ لأنها تسير على أصالة التقاليد في القصيدة العربية في نظامها المعروف، وفي لغتها القويّة. وأيْضاً لأنها تعَبِّر عَنْ تعْبير صادق عَنْ خلجات النفس البَشرية حين يشع عليها نور الهداية الربّانيّة، وتأخذ مِنْ الإيمان الأمل في مَحو كل ما مَضى مِنْ الذنوب .. عاش كعب في الجاهلية أكثر مِمَّا عَاش في الإسلام؛ مِمَّا جَعَلَ أصالة التقاليد تتمكن مِنْ نفسه، ولا بد مِنْ مرور فترة زمنيّة طويلة للإفلات مِنْ جاذبيّتها.

عندما بدأ كعب بالغزل اقتصَر على الوصف الخارجي للمحبوبة دون التعمُّق في نفسها وإبراز جمالها المَعْنوي. ولقد اختار لمحبوبته الخيالية اسم (سُعادْ)؛ لأنَّه مُشتقْ مِنْ (السعد والإسعاد) وهو سعيد؛ لأنَّ الرسول قبِل اعتذاره ودخوله الإسلام. كما أنَّه بدأ بالغزل للَفت انتباه السامعين إليه وإلى شعره .. تدُل القصيدة على أنّ كعبًا كان يتَّصِفْ بالذكاء الشديد، والشجاعة، والجراءة، والاعْتِراف بالذنب، والحِكْمة، والنزعة الدينيّة. حَيث بدأ مُناشدَته الرسول صلى الله عليه وسلم بالعفو بأُسلوب ذكي، يُعَبِّرْ عَنْ تسْليمه بالقضاء، وهو مَدْخل إلى قلب النبي حتى يَسْتوحي مِنْه صِدْق إيمانه، فيَسْتمِعْ إلى بقيّة حديثه. فلو بدأ كعب بالمدح؛ لاشتمّ مِنْه رائحة التزلّف والتقرُّبْ فلا يَقبل اعْتذاره. ومِنْ ذكاء كعب أنَّه قرَّرَ أنْ يَتصَدّى لمُعالجَة المَوْقِفْ بنفسِهِ (إهْدار دمه) فبدأ يُعَبِّر عَنْ صِدْق توْبته وحُسْن إسْلامه والرضاء بقضاء الله وقدره وإيمانه به.

ونلاحظ اسْتخدامه الاسمين (الله – الرحمن) كان تشبّثًا بالأمل في الرحمة والعفو؛ لأنَّ العَفو ناتِجْ حَتمي للرحمة، فالرحيم يغفر ويعفو عَنْ زلاّت الآخرين. كما اسْتخدم لفظ (سلامَته) وهو تعَبير عَنْ النجاة مِنْ المَوت، بدلاً مِنْ (مَنيَّته)؛ لأنَّ (سَلامَته) أبْلغْ مِنْ (مَنيَّته). يتبع ذلك بعَرض القضية ودِفاعَه فيها ويَبْدَؤه بلفظٍ قرآني مُؤثر وهو (أُنْبِئْتُ) بَدَلاً مِنْ (أُخبِرْتُ) حتى يعرض عَنْ بداية جديدة له في الاستخدام اللغوي مِنْ باب التعْبير عن انتقاله إلى حال جَديدة، ويَسْتفِزَّ في رسول الله خلة كريمة عُرِفَ بها النبي صلى الله عَليه وسلَّمْ، وهو : العفو عِند المقدرة، ويؤكد ذلك بذكر القرآن وما فيه مِنْ مَواعِظ وتفاصيل .. وتشير آيات كثيرة مِنْ القرآن الكريم إلى عفو الله ومَغفِرته لمَنْ تاب. وعِندما أرَادَ أنْ يُوَضِّح أنّ مَنْ نقلَ عَنْه هِجاءه للنبي عليه الصلاة والسلام، مجرَّدُ واشٍ نمّام، استثار مَعْنىً قرآنيًّا في قوله تعالى : (يأيُّها الذين آمنوا إن جاءَكُمْ فاسِقٌ بنبأ فتبَيَّنوا ...). كان مِنْ المُناسِبْ جدًّا في مِثل هذه الحالة أنْ يَسْتخدِم أبياتًا تسْتلْهِمْ روح القرآن حتى تتوافق النيّة مع الظاهر. فقد عَبَّرَ في البيتين (٣٨، ٣٩) عَنْ مَعاني قرآنيّة خاصة بالأجل والعُمر، من

نحو قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت)، ثمَّ التعْبير عَنْ مَعْنى قوله تعالى : (لقد جاءَكُمْ رسول الله مِنْ أنفسكم عَزيزٌ عليه ما عَنتّم حَريصٌ عَليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم). وذلك في قوله :

أنبئت أنَّ رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

ووصف الشاعر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بأنَّه نور، وهو الوصف القرآني له. نجد إنّ الشاعر كعب بن زهير قد تأثّر بالبيئة الإسلاميّة في المَعَاني والألفاظ، حيث ظهَرَ ذلك الأثر في مَعْرفته بأخبار سيدنا داؤد عليه السلام، الذي كان ماهِرًا في صنع الدروع كما وَرَدَتْ في القرآن الكريم، حيث ألان له الله الحديد وعلّمه نسج الدروع السابقات مِنه، قال الله سبحانه وتعالى : (وعلَّمْناه صِنْعَةَ لبوس لَكُمْ لتحْصُنَكُمْ مِنْ بأْسِكُمْ فهَلْ أنْتُمْ شاكِرون). أتى كعب بمعنى هذه الآية في قوله :

شُمُّ العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرابيلُ

كما تأثر كعب بالقرآن الكريم في وَصْفِه لأصْحَاب الرسول عليه الصلاة والسلام بالقوّة وإعداد العدة للأعداء، مُشيراً إلى قول الله تعالى : (وأعدّوا لهم ما استطعْتمْ مِنْ قوّة ومِنْ رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوّكم) .. ومِنْ مظاهر أثر الإسلام في ألفاظ كعب، تكرار لفظ (رسول الله)، والأمل في (عفو رسول الله)، و (هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مّواعيظ وتفصيل)، وربط الأعمال بمشيئة الله، وذلك في قوله :

لظلَّ يُرعد إلا أن يكون له مِنْ النبي بإذن الله تنويل

ومِنْ الصفات التي غرسها الإسلام في نفوس المُسْلمين، الاعتدال في إظهار المشاعر، فلا غرور عند النصر، ولا يأس عند الهَزيمة، وقد عبّر كعب عن ذلك في قوله :

لا يَفرَحون إذا نالتْ رماحُهُم قومًا وليْسوا مَجازيعًا إذا نيلوا

ومِنْ المُلاحَظ أنَّ كعب لم يستخدم الألفاظ القرآنيّة، وإنْ كان قد استلهم المَعاني، وهو أمر منطقي؛ لأنَّه لو جاءت في القصيدة ألفاظ قرآنيّة؛ لشككنا في نحلها عليه؛ لأنَّه لم يَكن قد أسلم بعد، ومِنْ ثم لم يقرأ القرآن أو يحفظه، وقد كان الشاعر ذكيًّا في هذا، ولكن بخصوص المعاني فهو يَعْرف مِنها الكثير، وقد شاعت المضامين التي يدعو إليها القرآن بين الناس، مُسْلميهم ومُشركيهم، ولذلك فلا حرج مِنْ استخدام هذه المعاني والمَبَاديء في صياغته الشعريّة. أما الاقتباس مِنْ القرآن الكريم، والاستفادة مِنْ ألفاظه، فما زال وقتها لم يحُن بعد.

كما يلاحظ الباحث أنَّ هناك وعيًا وحرصًا شديدين مِنْ الشاعر، فقد جاءت قصيدته مُحْكمة المَعاني والألفاظ، وبَسيطة التراكيب، وأنّه اختار المعاني والصور المُلائمة لمَوْقِف الاسْتعْطاف. كما يلاحظ الباحث قلّة المُحسِّنات البديعية في القصيدة، وقِلّة الصور، وغلبة النزعة الواقعية عليها، والتأثر بالظروف

التي صاحبت التجربة الشعرية للشاعر. و يلاحظ الباحث أيضًا تصويرًا جُزئيًّا وكُليًّا، فالشاعر مُتأثر بالإسلام، بالإضافة إلى المحافظة على القديم والتنويع في الأساليب البلاغية.

ويَبْدو أنَّ الشاعر قد أخذ وقتًّا طويلاً في التدقيق في القصيدة ومُراجعة صياغتها، ولم يَجْعلها تخرُجْ على سَجيَّتها؛ لأنّه في مَوْقِفْ لا يَحْتمِلْ الزلل في اللفظ، لا بالزيادة في المدح فيَبْدو بأنّه غير صادق، ولا بزلّة لِسان في لفظٍ يشتمّ عليه فيه النفاق.

ولا شكَّ أنَّ الشاعر استعان ببعض وسائل التوكيد، لتقوية المعاني، مِثل : (إنَّ الرسول لسيف) فهو مُؤكد بـ (إنّ، اللام)، وقوله : (لقد أقوم) مُؤكد بـ (اللام، قد)، وقوله : (لا يقع الطعن إلا في نحورهم) فهو أسلوب قصر بالنفي والاستثناء يفيد التخصيص والتوكيد .

كما يلاحظ الباحث أنَّ المُوسيقى في النص واضحة في الوزن والقافية، فقد اختار الشاعر بحر البَسيط المُمْتد؛ ليُلائم الاعتذار والمدح، واختار قافية اللام المُطلقة القويَّة؛ لتساعد على التأثير النفسي. في النص مُوسيقى خفيّة نابعة مِنْ حُسن اختيار الألفاظ وتنسيقها، وترابط المعاني، وجمال التصوير.

يَتّضح ذكاء الشاعر أيْضًا في أنَّ قصيدته خالية مِنْ العُيوب الشعرية المَعْروفة، مِثل : القافية واضطرارها، والضرورات الشعرية؛ لذلك جاءت مُحْكمة البناء في المعاني والمضامين والألفاظ والصياغة؛ فأدّت أثرهَا، وربما كان ذلك دليلاً على صِدق توبة الشاعر وقوة شعوره بعظمتة الإسلام، وعلى أنَّ توْبَته جاءت عن قناعة وليست مِنْ عاطفة، ولا مِن عَفو الخاطر، وأنَّ للشاعر مَوْهبةً كبيرةً في الشعر.

ومِنْ أفكار الشاعر، اعْتباره الفيلَ رَمْزًا للقوة والتحَمُّلْ، وذلك ناشيء مِمَّا سَمِعَه عَنْ الفيل وإنْ لم يَكنْ مِنْ بيئته فقد سَمِعَ عَنْ فيل (أبرهة) الذي جاء لهدم الكعبة؛ فأرْسَل الله عليه الطير الأبابيل قبل الإسْلام. كما أنّه انتزع الصور مِنْ بيئته، في نحو : (شمُّ العرانين) حيث كان ارتفاع الأنف دليلاً عَلى العِزّة عند العرب. وقوله : (حِياض الموت) حيث كانوا يُمَثلون الحِياض للشرب، والإعداد للحرب بلبس الدروع المَتينة، واستخدام السيف الهندي في الحرب، والرمح في الطعن ـ وإصابة الصدر تدل على الشجاعة والإقدام ـ لذلك استوحى الشاعر قِيَمْ الجاهلية فيما نعت به النبي صلى الله عليه وسلم وأصْحابه الكرام مِنْ قريش حين وصفهم بالشجاعة والسطو والكرم والنبل، ولم يشر فيها إلى فروض الإسلام، ولم يَذكر آية أو حديثًا؛ لأنّه مازال يَجْهَل الدين الإسْلامي. (القرشي ١٩٩٢م)

يلاحظ الباحث أنَّ كعبًا تأثر بالنابغة الذبياني؛ فردّد صيغًا ومعاني تذكّرنا بما قاله الذبياني، وذلك حين طلب مِنْ الرسول عليه الصلاة والسلام ألَّا يأخذه بأقوال الوشاة :

لا تأخذنِّي بأقوال الوشاة ولم أذنب وإنْ كثرت فيَّ الأقاويل

وذلك غير بعيد عَنْ قول النابغة في اعتذاره للنعمان في كلمته :

لئن كنتَ قد بُلِّغت عنّي وشاية لمبلغك الواشي أغَشُّ وأكذَبُ

إلا أنَّ الفرق بين كعب والنابغة يكمن في تلقيح ما قاله كعب بشيء مِنْ الإسْلام يبدو في نحو :

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

إنّ الرسول لسيف يستضاء به مهنّد من سيوف الله مسلول

وكل ما مَضى يَدُل على تكامُل التجربة الشعرية عند كعب، وكل ذلك مِنْ وجْدان صادق، وفِكر مُتماسِك، وتعبير جيّد، فالأفكار مُرتّبة تمامًا، حتّى وإنْ بدأت بالغزل، فهو بالإضافة إلى كونه اتباعًا لتقاليد القصيدة القديمة، إلا أنّها مُناسِبة لاستثارة حقيقة الرحلة والنقلة التي انتقلها مِنْ الكفر إلى الإسلام، كما إنَّ الأفكار الجُزئية في الموضوع مُرتبة تماما، وهي إظهار الخوف والتعبير عن الرجاء وما يتبعه مِنْ ضرورة مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لاكتساب عواطفهم في الموقف الذي يقفه .

ويلاحظ الباحث أنَّ مديح كعب للنبي استغرق أبياتا قليلة مِنْ القصيدة وكان واحدًا مِنْ جُمْلة مَواضيع عالجها الشاعر. فقد استهل قصيدته بمطلع الغزل على عادة شعراء العصر : ثلاثة عشر بيتًا، ثمَّ انتقل إلى وصف الناقة الذي شغل المساحة الشعرية الأكبر في القصيدة : واحدًا وعشرين بيتًا، وبعدها تخلّص إلى مَزج الخوف والرجاء والإعجاب والحكمة والتعبير الحقيقي والاعتذار والاستعطاف، ثمَّ أخيرًا مدح النبي والمهاجرين القرشيين دون الأنصار. وقد يُلاحظ صغر المساحة التي يشغلها مدح النبي، مع كونه الغرض الذي مِنْ أجْله أُنشئت القصيدة، كذا قلّة الإشارات للرسالة الجديدة. ففي القصيدة على طولها، عبارات مَعْدودة، مِثل : (رسول الله) و (أسْلموا) و (نافلة القرآن). ورغم أنّه ليس في بنية قصيدة (بانت سُعاد) عناصر جديدة، إلا أنَّ أهَمّ ما فيها فيما يتعلق بموضوعنا، أنها تتضمّن الإشارة إلى أنّ القرآن هو عطيَّة الله لرسوله، وأنّ الرسول (نور يُسْتضاء به) وسيف مِنْ (سيوف الله)، وأنَّ (العفو) عنده (مأمول). وإنْ كان العفو والسيف الذي كان هنا تعبيرًا عن البطولة والشجاعة والنخوة والمُروءة والدفاع عَنْ الحق، كلها مِنْ الصفات الإنسانية المعروفة قبل الإسلام، التي كان يعتز بها العرب. ومِمَّا يُمَيِّز هذا المديح، أنَّ صاحبه، أي النبي، الذي عُرِف بسَعة الخلق والحِلمْ والرحمة، إنّما حباه الله بهذه الصِفات الحميدة. فعفوه مَأمول؛ لأنّه مأذون به مِنْ عِند الله، وقد زاده القرآن حين أنزل عليه سكينة، وجَعَله مُزيلاً للخوف واليأس وباعِثًا للرجاء والأمَل .

لا شكّ أنَّ هذه الإشارات على قِلّتها، نظرًا لقرب العهد بالإسلام ولجدّة إسلام كعب بالذات، في غاية الأهمّيّة، إذا اعتبرناها مِنْ المَنظور التاريخي والاجتماعي. فهي وإنْ دلّت على سطحية مَعْرفة الشاعر بالإسلام، إنّما تدل أيضًا على النظرة التي كانت سائدة يومها إلى النبي، كإنسان مَيّزه الله فجَعَله رسوله وحاملاً نور هدايته لعصبته (لأهله قريش)، ولهذا اقتصر مَديح الشاعر على الصفات المَعْهودة للنبي، وهي

صِفاته الإنسانية و الرسولية، ولم يتعدّاها إلى إضفاء أمور أخرى، كالصفات الروحانية أو القدسية التي أضفاها عليه المادحون بعدُ .

القصيدة بالرغم من أنّها قِيلتْ في مَدح النبي وبعد أنْ أعلن الشاعر إسلامه، إلا أنّها تبقى قصيدة جاهلية مِنْ حيث التقليدُ والاتباع وطبيعة بنائها الشِعْري، ومِنْ حَيْث حركتها الداخلية وإيقاعِها الغِنائي، وغِناها بالتشبيهات والصور المادية. ولكن أهمّ ما يُمَيِّز هذه القصيدة عَنْ سائر شعر المَدح عامة، والمَديح النبوي خاصة، الذي سبقها على قلّته أو الذي قيل مِنْ بَعْدها، هو ذلك الارتباط العضوي بين القصيدة وقصَّة شاعرها مِنْ جهة، والدلالة التاريخية للقصيدة مِنْ جهة أُخرى. فالقصيدة تجلو لنا طرفًا مِنْ أخلاق النبي وتضعنا في أجواء العَصر الذي عاش فيه كل مِنْ المادح والممدوح. فقد تأكّد للشاعر أنَّ النبي حليم، واسعْ الرحمة، كريم. وبمدحه إيّاه كبر استعداده للاستماع إليه بصدر رحب، وقبوله في عداد المسلمين برغم الإساءة التي سبق للشاعر أنْ بادره بها. وفوق هذا كلّه تبيّن له بحقٍّ كرم النبي وجوده، عندما مَنحه بُردته الشريفة .. مِنْ جهة ثانية، تعيد القصيدة وقصَّتها، بيانَ الظروف الاجتماعية والدينية والسياسية التي دَفعتْ بالرسول إلى إهدار دم الشاعر ومِنْ ثم العفو عنْه. وكشاهد حيّ على تلك الفترة التاريخية المُهمّة، فإنَّ القصيدة وثيقة شاهدة على البيئة العامّة التي نشأ فيها الدين الجديد والطريق الذي سلكته الدعوة الإسلامية في بداياتها. كما أنّها تضيء جوانب مُهمّة مِنْ السياسة السمحة المتفهّمة والمنفتحة التي اتّبعها النبي صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته بين العرب.

القصيدة مُمْتزجة بقدر الإنسان ومصيره، وأيّامه، وأشْيائه الأليفة .. قصيدة شخصيّة لجميع الأشخاص. ولكن هذا لا يفقدها قيمتها الفنّية والتاريخية كقصيدة مَخضرمة وكباكورة الفنون الإسلامية؛ لأنَّها مع (جاهليّتها) مِنْ الناحية الفنية تبقى أكثر شعر المديح النبوي أصالة واستمرارًا ليس لنوعية أو حجم المديح الذي تضمَّنته كما سبق البيان، ولكن لكونها مِنْ أوائل المدائح التي أُنْشدت في حضرة النبي نفسه، وللأثر الذي تركته على الممدوح والمادح والمادحين بعدُ مُنذ أربعة عشر قرنًا.

أُعْجب النبي بالمديح، فلم يَكتفِ بمَنح مادحه حياة زمنية جديدة، بل وهبه بَرَكة لما بعد ذلك، عندما ألقى عليه بُردته، مع كل ما ترمز إليه (بُردة النبي) في المجالين الديني والدنيوي، يرى الباحث أنَّ ارتباط (بانت سُعاد) بالبردة النبوية، هو الذي أعطى هذه القصيدة قيمتها وجعلها تقليدًا شِعْريًّا استمرّ في فن المديح النبوي مُنذ ذلك التاريخ، على الأقل في قصيدتين مدحيّتين مشهورتين حملتا نفس الإسم هما : (بُردة البوصيري) و (نهج بُرْدة شوقي).

٢- الصور البلاغية

جاءتْ الصور البلاغية جَيّدة في قصيدة البُرْدة حيث نجد أنَّ الشاعر بدأ قصيدته بمقدمة غزلية استغرقت الأبيات الخمس الأوائل يَصِف فيها حالته النفسية والحزن الذي أُصيب به لفراق مَحْبوبته، ثمَّ يصفها لحظة رحيلها، ونلاحظ أنَّه وَصْفٌ حِسِّي اقتصر على الوصف الخارجي للمحبوبة، دون التعمُّق في نفسها وإبراز جَمالها المَعنوي، وقد اختار لمحبوبته الخيالية اسم (سعاد) لأنَّه مُشتق مِنْ (السعد والإسعاد) وهو سعيد؛ لأنَّ الرسول قبل اعتذاره وإسلامه. كما أنَّه بدأ بالغزل؛ للفت انتباه السامعين إليه وإلى شعره. نلاحظ أنَّه شبَّه صورة سعاد لحظة رحيلها مع قومها بأنَّها بَدَتْ كغزال، في صوتها غُنَّة، وفي عينيها فتور وحياء واكتحال. وقد أكَّدَ هذا التشبيه عَنْ طريق القصر والتوكيد، بالأداة (إلا). ويصفها عندما تقبل بأنَّها خفيفة مِنْ أعْلاها دقيقة الخصر، وعندما تدبر تبدو عظيمة العجزة، كما أنَّها مُعْتدلة القامة، فليست بالطويلة ولا بالقصيرة. ونجد في قوله : هيفاء مُقبلة / عجزاء مُدْبرَة، مُحَسِّنْ مِنْ مُحَسِّنات البديع وهو المُقابلة، وهو تقسيم يَعْطي جَرساً مُوسيقياً؛ لإبراز المعنى وإيضاحه. كما نجد أيضاً مُحسنًا بديعيًّا آخر وهو الطباق، وذلك في قوله : قِصْر / طول. ويصف أسْنانها عندما تبتسم وما فيها مِنْ ريق رطب كأنَّها مَسْقِيَّة بالخمر أكثر مِنْ مَرَّة، فهي مَرْويَّة وبياضها ناصع. وقد استخدم الشاعر في هذا المقطع الصورة الكلية، بما فيها مِنْ لون وحركة وصوت، تنقل لنا المشهد وكأنه ماثل أمامنا، نراه ونسمعه، فمِنْ الألفاظ الدالة على اللون : (مكحول / عوارض / ظلم الراح)، ومِنْ الألفاظ الدالة على الحركة : (بانت / مكبول / رحلو / مُقبلة / مُدبرة / تجلو / ابتسمت)، ومِنْ الألفاظ الدالة على الصوت : (قلبي / أغن). وفي قوله : (مَتبول / مَكبول) نجد مَحسنًا مِنْ المُحَسِّنات البديعية، وهو الجناس الناقص؛ وذلك لإعطاء الجرس الموسيقي وإبراز المعنى. ومِنْ الصور البلاغية التي وردت في هذا المقطع، التشبيه البليغ، عندما قال : إنَّ لثغرها نكهة طيبة كطيب رائحة الخمر، مُزجَتْ بماء بارد رقراق، أصابته ريح الشمال في أبطح وادٍ فبرَّدته وصافته مِنْ القذى، وملأت الأمطار ليلاً بطن الوادي. وكل ذلك في قوله

تَجْلو عَوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسَمَتْ كأنَّه مُنْهَلٌ بالرَّاح مَعْلولُ
شُجَّتْ بذي شَبَمٍ مِنْ ماءِ مَحْنيةٍ صَافٍ بأبْطحَ أضْحَى وهومَشمولُ
تَجْلو الرياح القذى عَنه وأفرَطه مَنْ صَوْبِ سَارية بيض يَعاليلُ

يصرح الشاعر بأنه لم يكن ليتَّهم سُعادًا لو لمْ يَكْذِب مَوْعِدُها، ولو قبلتْ نُصْحَه لها في أمْره، ولكنْ هذا مِمَّا يَنْقصُها؛ لأنَّها قد خلط بدمها الفجع بالمَصائب والكذب في الأخبار، وإخلاف الوعد، وتبْديل خليل بآخر، وأصبح ذلك سَجية لها وطبعاً يُلازمها، ولا حيلة في زواله عَنها. ووصفها بعَدَمْ ثباتها في عَهْدِها الذي زعَمَتْ به وعَدم القيام بالوعد، بأنَّها كالغول الذي يَتراءى في الفلوات على صُور مُختلِفة

وأشكال مُتباينة؛ فيَضُل الناس عَنْ الطريق. كما شبَّهها بالغرابيل في عَدَمْ الوَفاء بعُهودها ومَواثيقها، لِدَرجة أنَّ مَواعيد عَرْقوب صارَتْ لها مَثلاً يُضْرَبْ بها في إخلاف مَواعيدها الباطِلة. ولكِنْ بعد اتصافها بالجفاء وإخلاف الوَعد، يقول الشاعر : أنَّه لا يقطع الرجاء مِنْ مودتها ووفاءها بوَعْدها له في بقية عُمْره. ثمَّ يَلتفِتْ يُخاطِبَها قائلاً : إنَّه لا يَحْسِبْ ولا يَصَدِّق أنَّ له مِنها عَطاءً يَرْجوه. وكل ذلك في قوله في الأبيات مِنْ :

يا وَيْحها خُلّة لو أنَّها صَدَقتْ ما وعدت أو لو أنَّ النصح مقبولُ

إلى قوله :

فلا يَغُرَّنْك ما مَنَّتْ وما وَعَدْت إنَّ الأمانيَ والاحلامَ تضْليلُ

ومِنْ الصور البَلاغية في هذا البيت، النهي الذي خرَجَ مِنْ مَعْناه الأصْلي إلى مَعْنى آخر يُفْهَمْ مِنْ السياق، وهو التيئيس. كما نجدْ النفي الذي خرَج مِنْ مَعْناه الأصْلي إلى مَعْنى آخر يُفْهَمْ مِنْ السياق، وهو التحقير، وذلك في قوله : (وما لهُنَّ طِوال الدهر تعْجيلُ).

يذكر الشاعر أنَّ سُعاد اختفتْ في مَكان بعيد لا تصله إلا النوق الكريمة، الفاضِلة، الخفيفة، السريعة، الصلبة القويَّة، الشديدة، وأنَّ هذه النوق لشديدة للسَفر، قويَّةٌ عَليه؛ لأنَّ مَقدرتها وهِمَّتها أنْ تقطع الأماكِنْ المَجْهولة الأعلام والمَساكِنْ، وأنَّ هذه الناقة لا تكسل في الهاجرة، أي إذا اشتدَّتْ حَرارة الشمس على الأرض، ويَصِفها بأنّها تشبه الثور الوحْشي في نشاطه، وشِدَّة سيره في الهاجرة، وحِدَّة النظر، وخِفَّة الجسِمْ ويَسْتمِر في وَصْف هذه النوق، فيقول : إنَّ هذه النوق مُقلَّدها ضخم، ورسْغها مُمْتليء، وهذا خطأ مِنْ الصفة؛ لأنَّه قال : هي غليظة الرقبة، وخيرُ النجائب ما يَدِقُّ مَذبَحُه، ويَعْرُضُ مَنْحَرُه، ويَسيف أعلى عُنُقِه، ويَعْرُضُ باطِنها. ثمَّ يَصِفها بأنَّها غليظة الرقبة، عظيمة الوَجْنتين، ضخمة تشبه الذكر، كما يَصِفها بأنَّها واسِعة الجَنب، طويلة العُنق. ثمَّ وَصَفَ جلد هذه الناقة بأنَّه قوي شديد المِلاسة، وهذا يَدُل على سُمْنها وضخامتها، لدرجة أنَّ القراد المهزول لا يُؤثر فيه، بل يزلق عَنه، ثمَّ شبَّه جلد هذه الناقة بجلد سُلْحَفاء بَحْريَّة، والتشبيه هنا تشبيه بليغ، كما شبَّهه بجلد سَمَكة غليظة الجلد، وشبَّهه أيْضاً بجلد زرَافة جميلة كما يَسْتمر في وَصف الناقة، فيقول : إنَّها ناقة ضامرة مُهَجَّنة مِنْ إبل كريمة بَيْضاء، طويلة العُنق، خفيفة، وشبَّهها بحرف مِنْ حروف الكتابة؛ وذلك لدقَّتها وضمرها، كما أنَّ الحرف مِنْ النوق التي تشبه حرف الجبل لشِدَّتِها وصَلابَتِها، وهذا تشبيه بَليغ. كما شبَّهها بأنَّها تشبه حِمار الوحش؛ وهذا يَدُل على صَلابَتِها، والتشبيه هنا تشبيه بَليغ. ثمَّ وَصَف الناقة بأنَّها رُميت باللحم في أعْراضِها، وعَضلاتِها، ومذبحها وصدرها، فهي تامَّة الخَلْق لم يَنقصها شيء .. وفي وصف أعْضاء الناقة، فشبَّه مقدم عَيْنيْها ومنخرها، ومقدم أنفها، بالحدبة الطويلة والحجر الطويل الصلب؛ وذلك لكبر رأسها

وصلابة عَظم وجْهها. ثمَّ تحوَّل الشاعر إلى وَصف ذنب الناقة، فشبَّه ذنبها بجريدة النخل، ذات خُصل تُمِرَّ بها على ضرعها الذي لم يَنْقصْه اللبن، فهي لا تحلب، فإذا حُلِبتْ ضرَّ ذلك بقوَّتها. ومِنْ الخطأ هنا أنْ توصف بعِظَمِ الذنب وكثرة شعر الذنب، وأفضل ما يَكون مِنها للركوب أنْ تكون جدَّاء قصيرة الذنب، وإذا كانت للحلب فسُبُوغُ الأذناب وكثرة شعر الذنب يُسْتحب فيها.

ما زال الشاعر مُسْتمِرًّا في الوصف، حيث نجده يَصِف أنف الناقة بأنَّ فيها حَدبٌ مُرْتفع، فإذا نظر ناظر إلى أذنيها المحدَّبتين وسُهولة خدَّيْها؛ بان له عِتْق هذه الناقة وكرمِها، فالأفضل أنْ تكون محددة الطرف؛ لأنَّ القنا عَيْبٌ في النوق، وكذلك في الفرس. ثمَّ يَصِف قوائمَها بقلَّة اللحم، وهذا أسرع لرفع قوائمها وبَسْطِها إيَّاها في السير. ثمَّ يَصِفْ عصب باطن هذه القوائم بأنَّها سَمْراء اللون، صلبة لدرجة إنَّها تترك الحَصى مُتفرِّقة. ثمَّ يَصِف حَركة رَجع ذراعَيْها وَقت الهاجرة، ويشبِّه ذراعيها الطويلة بجبل قارة، الذي يَرْتفِعْ طولاً، ولا يرتفع عرضاً، خاصة عِندما تتلحَّف بالسراب. ثمَّ يَصِف يَدَيْ هذه الناقة في وَقت الهاجرة ـ وهو الوَقت الذي تَكِلُّ فيه ذوات الأربع، وتفتر ذراعا عَيْطل ـ فيُشبِّهها بيدي إمرأة طويلة حسنة، مات ولدها أو زوجها أو حميمها، فقامتْ تنوح، وهي شديدة الحركة، تشُقُّ ثيابها .. ونجد كل ذلك الوصف الذي مَضى يُساير النابغة الذبْياني في مَزج المدح والاعْتذار، وتسيْطر عليه عاطِفة يمتزج فيها الخوف والرجاء والإعجاب. كما أنَّ في البيتين (الثاني والثالث) حِكمة، فهو مُتأثر في ذلك بأبيه. وفي قوله : (خلُّوا) أُسْلوب إنشائي طلبي، يفيد الأمر، الغرض مِنه الالتماس. وقوله : لا أبا لكم : أُسْلوب إنشائي طلبي، يفيد النفي بغرض الدعاء، يَدْعو على ما يخوفه بفقد الأب (يدعو عليهم بألا يكون لهم أصْل ولا أب). وقوله : (فكلُّ ما قدَّر الرحمن مَفعولُ) تعبير حقيقي. وقوله : (ابن أنثى) كناية عَنْ مَوصوف، وهو الإنسان. وقوله : (آلة حَدْباء) كناية عَنْ مَوصوف، وهو النعش. وفي قوله :

أُنْبِئْتُ أنَّ رسولَ الله أَوْعَدني والعَفْو عِنْدَ رَسول الله مَأمُولُ

والألفاظ هنا واضحة ومُلائمة للجو النفسي تبعاً لكل مَوْقِفْ، فعند الإعْتِذار والإسْتعطاف تدل على الخوف والرجاء في العفو، مِثل : (أوْعَدني / العفو مَأمول). وقد وَرَدَ في هذا البيت مُحسِّن مِنْ المُحَسِّنات البديعية، هو الطباق بين (أوْعَدني و العفو). كما نلحظ أنَّ الشاعر قد تأثر بالبيئة الإسْلامية في المعاني والألفاظ، وظهر أثر ذلك في تكرار لفظ (رسول الله) والأمل في (عفو رسول الله) وذلك للتعظيم، فالأسلوب هنا أسلوب خبري. وقوله :

مَهْلاً هَداك الذي أعْطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ

فيه أسلوب إنشائي طلبي يفيد الأمر، الغرض منه الالتِماس، وذلك في قوله : (مَهْلاً). وقوله : (الذي أعْطاك نافلة القرآن) كناية عَنْ الله سبحانه وتعالى. ولفظة (نافِلة) توحي بأنَّ الله أتمَّ على الرسول بعلوم كثيرة (الرسالة والنبوة) وجَعَلَ الكتاب زيادة على تلك العلوم. وقوله :

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أُذنب وإنْ كثُرتْ فيَّ الأقاويلُ

فيه أُسْلوب إنشائي طألبي يفيد النهي، الغرض منه الالتِماس والرجاء. ولفظة (أقوال) توحي بكثرة الوشاة. وقوله : (الوشاة) ليدفع التهم عَنْ نفسه، كما استخدم لفظة (أقاويل) ليؤكِّد أنَّها مجرد اتهامات وليُدلِّل على بُطلانها .. يلاحظ الباحث أنَّ الصور الخيالية قليلة، اعْتمادًا على الإقناع العقلي بنفي التهمة (لم أُذنب)، واعتبار ذلك مِنْ أقوال الوشاة. ومع ذلك جاءتْ الصور رائعة وواضحة ومُلائمة للجو النفسي تبعًا لكل مَوقِفْ، فعند الاعتذار والاستعتطاف تدل على الخوف والرجاء في العفو، مِثل : (الوُشاة / لم أذنب / الأقاويل) .. وفي قوله :

لقد أقوم مقاماً لو يقوم به أرَى وأسْمَعُ ما لو يَسْمَعُ الفيلُ
لظلَّ يُرْعَدُ إلا أنْ يكون له مِنْ الرسول بإذن الله تنويلُ

تشبيه تمثيليٌّ، فهو يُمَثل نفسه بفيل يَرْتعد مِنْ هَول ما سَمِعَ، وذلك لتضخيم الصورة التي عليها مِنْ الخوف والفزع، وقد أكمل الصورة في البيت التالي له مُباشرة. و يلاحظ الباحث أنَّ الشاعر قد استعان ببعض وسائل التوكيد؛ وذلك لتقوية المَعاني، مِثل قوله : (لقد أقوم) مؤكد بـ(اللام وقد). كما نجد أنَّ الألفاظ واضحة ومَلائمة للجو النفستي تبعاً لكل مَوقِفْ، فعند الإعتذار والإستعطاف تدل على الخوف والرجاء في العفو، مِثل : (يُرعَد). كما نلحظ أنَّ تأثر الشاعر بالبيئة الإسْلامية أمرٌ واضِحْ، وذلك عندما رَبَطَ الأعمال بمشيئة الله قائلاً :

لظلَّ يُرْعَدُ إلا أنْ يكون له مِن الرسول بإذن الله تنْويلُ

ثمَّ انتقل الشاعر إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والمُهاجرين، فوَصَفَ الرسول عليه الصلاة والسلام وشبَّهه بالنور الذي يُهْتدى به، وبأنَّه سيف مِنْ سُيوف الحق والعدالة المَشروعة في وجوه الأعداء، تحف به جماعة مِنْ قريش دانت بالإسلام وهاجرت مِنْ مَكة في سبيله، وهذا تشبيه بليغ. ثمَّ وَصَفَ المُهاجرين بأنَّهم عندما هاجروا كانوا أقوياء، شجْعان، أباة، ولباسهم في الحُروب مُتقن الصنع، وكأنه مِنْ نسج داود عليه السلام، والتشبيه هنا بليغ. كما وَصَفهُمْ بأنَّهم يُحاربون بجرأة، ويَضربون باستبسال إذا هرب الجبناء وفرَّ الرعاديد، وإذا غلبوا عدوهم لا يَفرحون بذلك؛ لأنَّ النصر مِنْ عادتهم، وإذا غلبهم العدو لا يَجْزعون مَنْ لِقائه؛ وذلك لثِقتهم بالتغلب عليه، ثمَّ وَصَفهم بأنَّهم لا يَقعَ الطعن في ظهورهم، بل يَقعَ في نحورهم؛ لأنَّهم لا ينهزمون ولا يفرّون عَنْ مَوارد الرَّدى وساحات القِتال .. وقول الشاعر : (إنَّ الرسول

لسيف) هذا تشبيه بَليغ، شبه الرسول بالسيف المَصْنوع مِنْ حَديد الهند والمُتميز بجَوْدته، وفيه إيحاء بالقوة والسُلطان. وقوله : (يُسْتضاء به) استعارة مَكنية، شبه الرسول بالمِصْباح الذي يُهْتدى به في الظلام. وقوله : (سيوف الله) كناية عَنْ رسل الله وأنبيائه، والمُدافعين عِنْ رسالة السماء.

يَتضمَّن هذا المقطع صورة كلية فيها :

أ ـ اللون : (سيف / يُسْتضاء).

ب ـ الحركة : (مَسْلول).

وعند المدح نجد صِفات الهداية والقوة، مِثل : (نور / يُسْتضاءُ به / مُهنَّد / سُيوف الله). ونلحظ أنَّ الصور جاءتْ رائعة، مِثل :

إنَّ الرسول لسيفٌ يُسْتضاءُ به مُهَنَّدٌ مِن سيوف الله مَسْلولُ

حيث نجد الشاعر اسْتعان ببعض وسائل التوكيد لتقوية المعاني، من نحو: (إنَّ الرسول لسيف) فهو مُؤكد بـ(إنَّ واللام). وهذا البيت يَكشِف لنا عَنْ إحدى عادات العرب، وهي : أنَّهم كانوا إذا أرادوا اسْتدْعاء مَنْ حَولهم مِنْ القوم، شهروا السيف الصَقيل، فيظهر لمعانه عَنْ بُعد، فيأتون إليه طائعين مُهْتدين بنوره .. مِنْ المحسِّنات البديعية، الالتفات مِنْ الغيبة، وذلك في قوله : (إنَّ رسول الله أوْعَدَني) إلى الخِطاب في (مَهْلاً هَداك الذي أعْطاك ـ لا تأخذني) ثمَّ العودة إلى الغيبة في (إنَّ الرسول لسيف يُسْتضاء به)، وذلك للتشويق وتحْريك الأشجان .. أما قوله :

في عُصْبةٍ مِن قُريشٍ قال قائلُهم ببطنِ مَكَّة لما أسْلموا : زُولوا

فيشير إلى الهجرة الثانية إلى المَدينة المُنوَّرة .. عِندما وقف عُمر بن الخطاب رضي الله عَنه في وادي مَكة مُتحديًا، ومجاهرًا بهجرته .. وقول الشاعر : (قائلهم) إشارة إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عَنه .. وقوله : (زولوا) أُسْلوب إنشائي طلبي، يفيد الأمر بغرض الالتماس .. وفي قوله :

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عِند اللقاء ولا مِيلٌ مَعازيلُ

تأثُّر بالقرآن الكريم في وصْفه لأصْحابْ الرسول صلى الله عَليه وسلَّم بالقوَّة وإعداد العدة للأعداء، مُشيراً إلى قوله سبحانه وتعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم مِنْ قوَّة ومِنْ رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) .

يَتضمَّن هذا المقطع صورة كلية فيها :

أ ـ الصوت : (اللقاء).

ب ـ الحركة : (زالوا / اللقاء) .

وقوله :

شُمُّ العرانين أبطالٌ لُبوسُهمُ مِن نسج داود في الهَيْجاء سَرابيلُ

شُمُّ العرانين : كناية عَنْ صِفة العزة والإباء والشموخ .

لُبوسُهمُ مِنْ نسج داود : كناية عَنْ مَتانة الدروع ودقة الصنع. مَزج الشاعر قوَّة الدروع الشكلية بالقوَّة الروحية، خاصة وأنَّ دروع داود هي مِنة مِنْ الله سبحانه وتعالى عَلَّمه إيَّاها. ويَتضمَّنْ هذا المقطع صورة كلية أيضًا :

أ ـ اللون : (لبوسهم / سرابيل) .

ب ـ الصوت : (الهَيْجاء) .

ج ـ الحركة : (نسج / الهيجاء).

يَسْتمِرْ الشاعر في مَدح الأنصار رضي الله عنهم النبي عليه الصلاة والسلام فيُشبِّههم بالجمال الزهر، والتشبيه هنا بليغ، وجه الشبه التَّقدُّم والنشاط والسُرْعة في اندفاعهم في ساحة المعركة والقتال يَحْميهم مِنْ الضرب والطعن (الاندفاع والتقدم إلى الأمام، خاصية مِنْ خصائص الجمال الزهر). ثمَّ يعرض بالمُقابل صورة الأعداء في جُبْنهم وتراجعهم إلى الوراء، واستخدام التنابيل كناية عَنْ صِفة الضعف وقصور الهمَّة. وفي البيت مُقابلة بين المؤمنين الذين يَدفعهم إيمانهم إلى التقدم وطلب الشهادة، والكفار الذين يُسَيْطِرْ عليهم الجبن والضعف؛ فيتراجعون .

يَتضمَّنْ هذا المقطع صورة كلية فيها :

أ ـ اللون : (الجمال الزهر / السود).

ب ـ الحركة : (يَمْشون مَشيَ الجمال / ضرب / عرَّد).

وقوله :

لا يَفرحون إذا نالت رماحُهُمُ قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

كناية عِنْ أخلاق المسلمين، فهم لا يشمتون في أعدائهم عند النصر، ولا يصيبهم الجزع والخوف عند الهزيمة؛ لأنَّهم يعرفون أنَّ الأيَّام دول، وأنَّ الصبر على البلاء قوَّة. وفي البيت مُقابلة تُبَيِّن حال المُسْلمين في الموقفين : النصر والهزيمة. يَتضمَّنْ هذا المقطع صورة كلية فيها : الحركة : (نالت).

وقوله :

لا يقع الطَّعْنُ إلا في نُحُورِهِمُ ما إنْ لهم عن حِياض الموت تَهْليلُ

يعْطي البرهان والدليل على شجاعتهم عَنْ طريق الكناية، وأكَّد ذلك بأسلوب قصر للتوكيد (لا يَقع الطعن إلا في نحورهم)، فصفتهم الشجاعة عند المواجهة، ثمَّ وضَّح هذه الفقرة في صورة حِسّيَّة، وذلك عِندما قال : (حِياض الموت)، فقد شبَّه الموت بالحِياض، وجاء التشبيه البليغ في صورة المضاف

والمضاف إليه. كما نجد في هذه الفقرة استعارة تصريحية؛ لأنَّه شبَّه ساحة المعارك بحياض الموت وصرَّح المشبَّه به .

يَتضمَّنْ هذا المقطع أيضاً صورة كلية فيها :

أ ـ اللون : (نحورهم) .

ب ـ الحركة : (يقع الطعن).

استعان الشاعر ببعض وسائل التوكيد لتقوية المعاني، وذلك في قوله : (لا يقع الطعن إلا في نحورهم)، فهو أُسْلوب قصر بالنفي (لا) والاستثناء (إلا) ويفيد التخصيص والتوكيد .. ويلاحظ الباحث أنَّ الصور الخيالية قليلة، اعتماداً على الإقناء العقلي، ومع ذلك جاءتْ رائعة.

الخاتمة والنتائج

١ ـ استطاع الشاعر أنْ يُعَبِّر بصدق عَنْ نفسه، وبيئته التي عاشها، ومراحل حياته.

٢ ـ كان لطبيعة بلاد الشاعر أثر كبير في شاعريته.

٣ ـ أكثر الشاعر مِنْ استخدامه للصور البلاغية في شعره، بالنظر إلى ألفاظه التي استخدمها، نجده قد تأثر بالإسلام والقرآن بالإضافة إلى استخدامه للألفاظ القويَّة التي أضفت جمالاً واضحًا على الرغم من التكرار الملاحظ لبعض الألفاظ.

٤ ـ تمتَّع الشاعر كعب بن زهير بخيال واسع؛ الأمر الذي جعله يتصدَّى لمعالجة مَواقفه ـ مَوْقِف إهدار دمه، ومشاكله.

٥ ـ مِنْ أوْفر الأغراض الشعرية عند كعب بن زهير غرض المدح، نجده قد التزم فيه بقواعد بِناء قصيدة المدح العربية، مِنْ التزام جزالة الأسلوب وعدم التطويل. كما نجده قد مَزج بين شعر البادية وشعر الحضر. ولم يكنْ مَدحه كعادة الشعراء مِنْ أجل المال، بل جاء مَدحه صادقاً تجاه مَنْ يَمْدحه، وهذا يدل على صِدق توبته واسلامه .

٦ ـ نلاحظ أنَّ شعر كعب قد اتَّسم بالرقَّة، متأثِّراً بلغة بيئته وعصره.

التوصيات :

١ ـ أُوَصّي بالاهتمام بالأدب بصورة عامة، وإعطائه حقه من الدرس الناقد والنافع. كما أُوَصّي – في هذا المجال – بالاطلاع على شعر كعب على وجه الخصوص؛ فهو قمن بالاهتمام.

٢ ـ كعب بن زهير شاعر غزير المادة العلمية، مُتعدِّد الفنون والأغراض، وبالرغم مِنْ ذلك فالدراسات حوله قليلة لم تعطه حقه، لذلك يمكن للطلاب دراسته مِنْ جوانب مُختلفة.

٣ ـ لكعب بن زهير ديوان شِعْري كتبه بأسلوب جميل، وبألفاظ سهلة وجزلة، فلا بأس مِنْ إجْراء دراسة حوله.

٤ ـ تناول كعب بن زهير في شعره كل أغراض الشعر، ومَزجها بالطبيعة، فكل غرض مِنْ هذه الأغراض يَصلح لأنْ يُدْرس لوحده وتُبَيَّن فيه الصور الفنية.

٥ ـ وأُوصّي أخيراً بدراسة الجوانب التي لم أتطرَّق إليها.

هذه بعض التوصيات التي أرى إنَّها مُفيدة لكل مَن يُريد التعرُّف على هذا الشاعر والاستفادة مِنْ الذخيرة الشعرية التي يَمْتلكها .. وأخيرًا هذا البحث المتواضع أحسبه على جانب كبير مِن الأهمية، فإنْ حَقَّقْتُ بعض أهدافها وهو ما قصدتُ إليه وعَمِلتُ مِنْ أجله، وإلا فحسبي نصيب المجتهد وأجره، وما الكمال إلا لله وحده، عليه توكلتُ وإليه أُنيب والله المُوفق ..

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- ديوان كعب بن زهير، الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين العسكري، تحقيق وتقديم الدكتور حنَّا نصر الحِتّي. بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .

- كعب بن زهير. قصيدة (بانت سعاد) شرح التبريزي، تحقيق كرنكو. بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ١٣٨٩هـ / ١٩٧١م .

ـ الأعلام، خير الدين (الزركلي). بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م، ٨ مجلّدات .

ـ الأغاني، أبوالفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي (الأصبهاني)، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء. تونس، الدار التونسية للنشر، طبع ونشر دار الثقافة اللبنانية، طبعة ١٩٨٣م، ٢٥ مجلّداً .

ـ الأمالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي (القالي). يليه كتاب التنبيه لأبي عبيد البكري. بيروت، دار الحديث للطباعة

ـ الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة)، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. القاهرة، دار التراث العربي، ط٣، ١٩٧٧م، مجلدان.

ـ العقد الفريد، أحمد بن محمد الأندلسي (ابن عبد ربه)، شرح وضبط وتصحيح أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري. بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٦ / ١٩٨٦، ٧مجلّدات .

ـ العمدة، أبو علي الحسن القيرواني (ابن رشيق)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط٤، ١٩٧٢م، مج١، جزءان .

ـ جمهرة أشعار العرب، محمد بن أبي الخطاب القرشي (أبوزيد القرشي)، شرحه وضبطه وقدّم له الأستاذ علي فاعور. بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ /١٩٩٢م.

ـ ديوان زهير بن أبي سُلمى، شرح وتقديم وتعليق الدكتور محمد محمود. بيروت، ٢١ / ٥ / ١٩٩٥م.

ـ طبقات الشعراء، محمد بن سلام الجمحي. بيروت، دار الكتب